AMIN MAALOUF

L'AMOUR DE LOIN

Livret

BERNARD GRASSET
PARIS

أمين معلوف

الحب عن بعد

مسرحية غنائية

ترجمة: نهلة بيضون

دار الفارابي ـ ANEP

إلى بيتر سيلار

الكتاب: الحب عن بعد
المؤلف: امين معلوف
المترجمة: نهلة بيضون
الغلاف: فارس غصوب
الناشر: * المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار (ANEP)
28 طريق أحمد واكد، دالي ابراهيم، الجزائر
الهاتف: 53/52 38 37 21 213
الفاكس: 53/20 72 36 21 213
* دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107

الطبعة الأولى 2002
ISBN: 9961-756-36-3
Dépôt - légal: 1154-2002

EDITIONS ANEP
28 route Ahmed Ouaked Dely-Ibrahim, Alger-Algérie
Tél: 213 21 37 38 52/53 - Fax: 213 21 36 72 20/53
e-mail: dcpa@anep.com.dz

DAR AL FARABI
(Société Libanaise des Imprimés s.a.l.) Beyrouth - Liban.
Tel: (01)301461 – Fax: (01)307775 – P.O.Box: 3181/11
Code Postal: 1107 2130
e-mail: farabi@inco.com.lb

"مغناة الحب عن بعد" هي (أوبرا) من تلحين كايجا سارياهو، أما النص فهو لأمين معلوف. أخرجها بيتر سيلار لمهرجان سالزبورغ في آب العام 2000، بإدارة كِنت ناغانو الموسيقية وديكور لجورج تسيبين. وقامت داون أوبشاو بأداء دور كليمانس، إلى جانب دواين كروفت في دور جوفري روديل ودغمار بيكوفا في دور الحاج.

شارك في إنتاج هذا العمل الأوبرالي مهرجان سالزبورغ، بإدارة جيرار مورتييه، ومسرح الشاتليه، بإدارة جان - بيير بروسمان، و «دار أوبرا سانتافي». تمّ عرض الأوبرا على المسرح في فرنسا خلال شهر تشرين الثاني/نوفمبر العام 2001، ثم عرضت في الولايات المتحدة في شهر تموز/يوليو 2002.

ويحرص مؤلف النص على التعبير عن امتنانه لأشخاص كثيرين رافقوه في هذه المغامرة الجماعية، لا

سيما جان - باتيست باريير، وإيزابيل بوديس، وبيتي فريمان، وميشال لاڤال، وكاتي نيلين، وألان باتريك أوليفييه، إلى جانب أندريه، ورشدي، وطارق، وزياد معلوف.

توزيع الادوار

جوفري روديل، أمير بلاد بلاي وشاعر جوّال (باريتون)، كليمانس، كونتيسة طرابلس (السوبرانو) الحاج (ميتزو - سوبرانو)

تدور أحداث الأوبرا في القرن الثاني عشر، بين مقاطعة أكيتين الفرنسية، ومدينة طرابلس، وعرض البحر.

الفصل الأول: جوفري روديل، أمير بلاد بلاي، سئم حياة الترف التي يعيشها الشبان في مثل سنّه، وبات يتوق لحب مختلف، بعيد، وهو يعتقد مسبقاً أنه لن يصادفه أبداً. فرفاقه القدامى وخلّانه يلومونه على هذا التغيير الذي أصابه بحيث أخذوا يهزأون منه. لقد كانوا يؤكدون له باستمرار أن المرأة التي يتغنى بها لا وجود لها. غير أن حاجاً عائداً من الشرق كان يؤكد له أن تلك

المرأة موجودة فعلاً، وهو قد التقاها حقيقة. ومنذ تلك اللحظة ما عاد جوفري يفكر بسواها.

الفصل الثاني: إثر عودته إلى الشرق، يلتقي الحاج كونتيسة طرابلس، ويعترف لها بأن أميراً وشاعراً جوّالاً في الغرب، يتغنى بها في أغانيه، ويدعوها "حبيبته البعيدة". فتروح الكونتيسة التي شعرت للوهلة الأولى بالإهانة تحلم بذلك العاشق الغريب والبعيد، ولكنها أخذت تتساءل، أيضاً، إن كانت جديرة وتستحق مثل هذا العشق.

الفصل الثالث: في المشهد الأول، يلتقي الحاج بجوفري، بعد عودته إلى بلاد بلاي، ويسرُّ له بأن تلك السيدة باتت على علمٍ بأنه يتغنى بها، فيقرر الشاعر الجوال السفر للقائها.

في المشهد الثاني، يبدو أن كليمانس، من جهتها، تفضل أن تظل علاقتهما بعيدة نائية، لأنها ترفض العيش في شوق الإنتظار، وتأبى لوعة العذاب.

الفصل الرابع: يبحر جوفري متشوقاً للقاء " حبيبته البعيدة "، ولكنه يشعر كذلك برهبة اللقاء الموعود. يندم على قراره المتسرع بالسفر، ويتعاظم قلقه فيغدو عليلاً، ويستفحل داؤه مع اقترابه من طرابلس التي يصل إليها وهو يحتضر...

الفصل الخامس: عندما يرسو المركب، يذهب الحاج لإبلاغ كليمانس بأن جوفري قد وصل، وهو عليل ولكنه

يطمع بلقائها. يصل الشاعر الجوال إلى قلعة طرابلس غائباً عن الوعي، ومحمولاً على محفَّة. وفي حضرة المرأة التي تغنى بها، يستعيد وعيه شيئاً فشيئاً، فيلتقي "الحبيبان البعيدان"، ويستعجلان البوح مع اقتراب ساعة المنون، فيتصارحان، و يتعانقان، ويتعاهدان على الحب والهيام...

وحين يلفظ جوفري أنفاسه في أحضان كليمانس، تتمرَّد الكونتيسة على المشيئة الإلهية، وتلوم نفسها على المأساة التي حصلت، وتقرر الدخول إلى الدير. وتظهر في المشهد الأخير، مستغرقة في الصلاة، ولكن كلامها مبهم، ولا يفهم المرء إن كانت تصلي راكعةً لربها أم "لحبيبها البعيد".

الفصل الأول

قصر صغير من القرون الوسطى في جنوب ـ غرب فرنسا. جوفري روديل، جالساً على كرسي، يحمل آلة موسيقية، طنبوراً أو عوداً، منهمكاً في تلحين قصيدة، ينظم أبياتها وأنغامها.

جوفري:

لكم تغنيت بالسعادة، وسعيداً ما كنت قط...

(يلوّح براسه رافضاً)

بالسعادة لكم تغنيت، وسعيداً ما كنت البتّة.

(يهز راسه مستحسناً)

بالسعادة لكم تغنيت، وسعيداً ما كنت قط.
لمحت عندليباً على فنن، ينادي محبوبتي
فأمست كلماتي رجع كلمات، وأبياتي صدى أبيات
الا قلت لي أيها العندليب...

(يتوقف)

أيا عندليب، هلا قلت لي، أيا عندليب...

(يطرب لما قال)

أيا عندليب، هلا قلت لي، أيا عندليب...

جوقة الخلان:

لن يقول لك العندليب شيئاً!

جوفري:

أيها الخلان، دعوني أكمل!

جوقة الخلان:

لا، يا جوفري، لن ندعك تكمل، أصغِ إلينا.
سنقول ما أتينا لأجله،
ومن ثم ننصرف، نعدك!
ولن تلمح وجوهنا بعد اليوم...

جوفري:

لم أطلب منكم الإنصراف أيها الخلان،
إنما طلبت أن تسمحوا لي بإكمال هذه اللازمة، إنني
أبحث عن كلمة...

جوقة الخلان:

إن كنت تبحث عن كلمة،
فسوف تجد ضالتك في ما سنقوله لك
أصغِ إلينا!

(يهز جوفري كتفيه، متبرِّماً، ويروح يعزف على آلته اللحن نفسه، بدون الكلمات التي يحاكيها مكتفياً فقط بتحريك شفتيه، وكأنه ينظمها همساً. وعندما تبدأ جوقة خلانه بالوعظ، يتلقف كلماتهم لتلحينها، مستبقاً ما يقولونه أحياناً لعلمه سلفاً بما يريد المنطق السليم أن يسديه من نصح).

جوقة الخلان:

جوفري، لقد تغيرت، وفقدت بهجتك
ما عادت شفتاك تبحثان عن أعناق الزجاجات
ولا عن شفاه النساء...

جوفري:

(يقلِّدهم):

جوفري، لقد تغيرت،

جوفري، لقد فقدت بهجتك
مع أن حانات "أكيتين"
ما زالت تذكر من ضحكاتك الرنين
واسمك يظل محفوراً بالسكين
على خشب موائدها الداكن.

(يكف عن العزف على العود)

هل اغفلت شيئاً؟
آهٍ، أجل...

(يعاود العزف)

جوفري روديل، تذكّر،
إن النساء كنَّ ينظرن إليك بخشية
والرجال بغيرة وحسد...

(يتريث)

أم أنهم قالوا العكس؟

(ويعاود الكرة)

كان الرجال ينظرون إليك بخشية
والنساء بغيرة وشهوة...

جوقة الخلان:

إسخر يا جوفري، اسخر ما طاب لك!
ولكنك كنت سعيداً ليلاً نهاراً فيما مضى
أم لعلّك نسيت؟

جوفري:

لعلّني كنت سعيداً، أيها الخلان، أجل، لربما كنت
إنما من كل ليالي الصبا
لم تبق ذكرى
من كل الخمرة التي احتسيت
لم يبق سوى ظمأ شديد
من كل العناقات لم يبق لي
سوى ذراعين أخرقين
جوفري ذاك الذي كان يسمع زعيقه في الحانات،
لن يسمع له صوت بعد اليوم
جوفري ذاك الذي كان كل ليلة يهوي بجسده
على أرجوحة جسد امرأة،
لن يلمحه أحد بعد اليوم...

جوقة الخلان:

ألن ترغب بعد اليوم باحتضان امرأة بين ذراعيك!

جوفري:

المرأة التي أرغب باحتضانها بعيدة، نائية
ولن تطوقها ذراعاي ما حييت.

جوقة الخلان:

(بتهكم):

وأين هي تلك المرأة؟

جوفري:

(ساهماً، مطرقاً):

إنها بعيدة، بعيدة، بعيدة.

جوقة الخلان:

من هي تلك المرأة؟
وما هي صفاتها؟

جوفري:

إنها جميلة، متواضعة، فاضلة، رقيقة،
شجاعة، خجولة، جلودة، ضعيفة،

أميرة بقلب فلاحة، وفلاحة بقلب أميرة،
وبصوتها الشجي ستنشد أغنياتي...

(وفيما يعدِّد جوفري الصفات التي يفترضها في حبيبته النائية، يدخل رجل جليل، متكئاً على عصا الحجاج، ومرتدياً معطفاً طويلاً بلا أكمام. يتأمل بعطفٍ الشاعر الجوال الذي لم يلمحه بعد، مسترسلاً في مناجاته).

جوفري:

جميلة، بدون صلف الجمال
نبيلة، بدون صلف النبل،
تقية بدون صلف التقى...

جوقة الخلان:

لا وجود لتلك المرأة، قل له أيها الحاج،
أنت الذي تجوب أرجاء المعمورة، قل له!
لا وجود لتلك المرأة!

الحاج:

(متمهلاً):

لعلها غير موجودة

ولعلها موجودة

ففي أحد الأيام، كنت وراء البحار،

ولمحت سيدة عابرة...

(يلتفت جوفري والجوقة نحوه، ويتعلقون بشفتيه فيما يتابع حديثه بهدوء)

كان ذلك في طرابلس، قرب القلعة. كانت في طريقها إلى الكنيسة، وإذ بكل ما عداها يتوارى... توقفت الأحاديث، وحلّقت كل العيون صوبها كفراشات بيضاء الأجنحة لمحت ضوءاً.

كانت تمضي دون أن تنظر من حولها، تجرُّ لحظها كما تجرُّ ذيل ثوبها.

جميلة بدون صلف الجمال، نبيلة بدون صلف النبل، تقية بدون صلف التقى...

جوفري:

(يظل صامتاً لوهلة، ثم ينطق ويكتفي بالقول):

ألا زدني أيها الصديق،

زدني،

زدني عنها...

الحاج:

ماذا أقول؟

وقد قلت كل شيء

كنا قرب القلعة،

وكان أحد الفصح،

واسمها...

جوفري:

لا، تمهّل، لا تبح باسمها!

تريث!

صف لي أولاً لون عينيها.

الحاج:

(وقد بوغت بالسؤال):

عيناها... عيناها...

لم اتأملها عن كثب...

جوفري:

(يسرّح النظر بعيداً):

عيناها بلون البحر حين تشرق الشمس
ويلمح المرء الظلمات تنأى عند خط الأفق...

الحاج:

(يسعى لإعادته إلى أرض الواقع):

جوفري، يا صديقي...

جوقة الخلان:

جوفري، جوفري روديل،
مركبك يبتعد عن الضفة
وذهنك يشرد...

(ولكن الشاعر الجوّال لا يسمعهم، مستغرقاً في حلمه).

جوفري:

وشَعْرُها؟

(ومرة اخرى، يتظاهر الحاج بالاحتجاج، ولكن جوفري يتابع الكلام، دون أن يلتقط أنفاسه).

جوفري:

(بتصميم):

شعرها فاحم وناعم لا تبصره في عتمة الليل، بل تسمعه كحفيف الأغصان...

الحاج:

(وقد كفَّ عن معارضته):

بدون شك...

جوفري:

ويداها، يداها الناعمتان، تجريان كالماء الرقراق
أضمهما في راحتيَّ المبسوطتين، وأنحني فوقهما
كالينبوع، فأنهل كي أرتوي، وأنا مغمض العينين...

(وفيما يسترسل جوفري في مناجاته، ويتخيل حبيبةً وهمية، ينسحب زائره الحائر خلسةً، وكذلك يتوارى خلانه).

جوفري:

(وحيداً، يعزف احياناً على عوده):

وشفتاها ينبوع نديٌّ آخر،
يبتسم ويهمس بالسلوان
ويمنح نفسه للعاشق الظمآن...
وثوبها...
قل لي، يا صديقي، ماذا كانت ترتدي؟

(وإذ يلاحظ ان الحاج قد انصرف، يظل صامتاً لوقت طويل، ينتقل من الوجد إلى الكآبة، ثم يتابع مناجاته).

ماذا فعلت بي أيها الحاج؟
أرشدتني إلى ينبوع لن أنهل منه،
فتلك السيدة البعيدة ليست لي، ولن أعرف امرأة سواها
ماذا فعلت بي أيها الحاج؟
جعلتني راغباً بتذوق ذلك الينبوع البعيد
ولن يتسنى لي ما حييت
ان أروي ظمأي من مائه.

الفصل الثاني

حديقة في باحة القلعة التي تقيم فيها كونتيسات طرابلس. تقف كليمانس على مطل، وتحاول رؤية شيء ما، بعيداً، لجهة البحر، وحين يمرُّ الحاج على مقربة منها، تناديه.

كليمانس:

قل لي أيها الرجل الطيب!

الحاج:

(يلتفت نحوها ببطء، وكان يحاول التخفي):

هل تناديني أيتها الكونتيسة؟

كليمانس:

ذلك المركب الذي رسا لتوه،
هل تعلم من أين أتى؟

الحاج:

لقد كنت على متن ذلك المركب، أيتها السيدة النبيلة،

وكنت قادماً إلى القلعة
لأتمنى طول العمر للكونت شقيقك،
ولك أيضاً،
لقد أبحرنا من مرسيليا.

كليمانس:

وقبل مرسيليا، أيها الحاج،
من أين أبحرتم؟

الحاج:

من بلاد بلاي، في مقاطعة أكيتين، إنها بلدة صغيرة،
لا أظن أنك تعرفينها...

كليمانس:

(بدون أن تنظر إليه):

هل تستحق بلادك
أن تهجرها؟
هل جوّعتك؟
هل أهانتك؟
هل طردتك؟

الحاج:

لا شيء من كل ذلك، أيتها الكونتيسة
فقد فارقت فيها أعزَّ الناس
وكان عليَّ أن أرحل فيما وراء البحار
وأرى بأم العين
ما يحتضنه الشرق من غرائب
القسطنطينية، بابل، وأنطاكية،
بحار الرمل،
أنهار الجمر،
الشجر الذي يذرف دموعاً من بخور،
الأسود في جبال الأناضول،
وقصور الجبابرة.

(صمت)

وكان واجباً عليَّ محتماً وأكيداً،
أن أزور الأرض المقدسة.

كليمانس:

(تخاطبه، إنما تخاطب كذلك السماء، وتناجي روحها):

كم من بشر يحلمون بزيارة الشرق،
وأنا أحلم بالرحيل
في الخامسة، فارقت تولوز
ومنذ ذلك الحين، لم أشعر بالسلوان
كل مركب يرسو يذكرني بمنفاي
كل مركب يبتعد يشعرني باني هُجرت.

الحاج:

ولكن طرابلس ملك لك، ولأسرتك النبيلة.
وهذا البلد أصبح الآن بلدك، وفي ثراه يرقد أسلافك.

كليمانس:

هذا البلد ملك لي؟ ربما. ولكني لست ملكاً له.
قدماي تقفان على العشب هنا، إنما كل جوارحي
تتقافز على أعشاب بعيدة.
كل منا يحلم بما وراء البحار، ولكن ما وراء بحارك
أيها الحاج هنا،
أما ما وراء بحاري، فهناك.
ما وراء بحاري في نواحي تولوز حيث أسمع حتى اليوم
نداءات أمي وضحكات الطفلة التي كنت.

وأذكر كذلك أنني جريت وأنا حافية القدمين في درب صخري وراء قطة.
كانت القطة صغيرة، ولعلها ما زالت على قيد الحياة، وما زالت تذكرني.
أو لعلها ماتت، أو نسيتني، كما نسيتني حجارة الدروب.
وأذكر كذلك طفولتي، في حين لا شيء من دنيا طفولتي يذكرني.
البلاد التي أبصرت فيها النور تتنفس في أعماقي،
ولكني قد متُّ بالنسبة إليها.
كم يسعدني لو تذكّرني سور واحد، أو شجرة واحدة.

الحاج:

(بعد صمت متردد وطويل):

ثمة رجل يفكر فيك.

كليمانس:

(وكانت تناجي روحها حتى كادت تنسى وجود الحاج، فتعود ببطء إلى أرض الواقع):

ماذا قلت؟

الحاج:

ثمة رجل يفكر فيك أحياناً.

كليمانس:

أي رجل؟

الحاج:

شاعر جوّال.

كليمانس:

شاعر جوّال؟ وما اسمه؟

الحاج:

إنه يدعى جوفري روديل، وهو كذلك أمير بلاد بلاي.

كليمانس:

(تتظاهر باللامبالاة):

جوفري... روديل... لا بد أنه لمحني فيما مضى وأنا طفلة

الحاج:

لا، ما لمحك قط... على ما يبدو.

كليمانس:

(مضطربة):

وكيف يعرفني إذن؟

الحاج:

أخبره أحد المسافرين يوماً أنك
جميلة بدون صلف الجمال،
نبيلة بدون صلف النبل،
تقية بدون صلف التقى،
ومنذ ذلك الحين، يفكر فيك دائماً... على ما يبدو.

كليمانس:

ويذكرني في أغانيه؟

الحاج:

ما عاد يتغنى بسيدة أخرى سواك.

كليمانس:

وهل... هل يذكر إسمي في أغانيه؟

الحاج:

لا، إنما يعلم السامعون أنه يتحدث عنك.

كليمانس:

(مرتاعةً، ثم تثور فجأة):

عني؟ وبأي حقٍّ يتحدث عني؟

الحاج:

لقد وهبك الله الحسن يا كونتيسة،
إنما لتتمتع به عيون الآخرين.

كليمانس:

وماذا يقول ذلك الشاعر الجوّال؟

الحاج:

ما يقوله كل الشعراء، إنك جميلة وإنه يهواك.

كليمانس:

(مستاءة):

ولكن بأي حقٍّ، يا إلهي، بأيِّ حق؟

الحاج:

لا شيء يرغمك على مبادلته الحبَّ يا كونتيسة،
إنما ليس بوسعك أن تحولي دون افتتانه بك من بعيد.
إنَّه يقول، أصلاً، في أغانيه
إنك النجمة النائية،
وإنه متيَّم بك بدون رجاء.

كليمانس:

وماذا يقول بعد؟

الحاج:

تخونني الذاكرة... إنما
ثمة أغنية تقول على ما أظن:
"لن أتمتّع بحبٍّ
ما لم أنعم بذلك الحب البعيد
لا أعرف أنبل وأفضل منها
في البلدان القصية أو الدانية
إنها لمن العظمة والأصالة

بحيث وددت، لأجلها،
أن أكون أسيراً، هناك، في مملكة العرب".

كليمانس:

(وقد اغرورقت عيناها بالدموع):

آهٍ، يا إلهي، وأنا ملهمته.

الحاج:

(مسترسلاً بالنبرة نفسها):

"أصدق ربي
الذي سارى بفضله محبوبتي البعيدة
إنما لكل نصيب من الخير ألقاه
أعاني مشقتين من الشر لأنها نائية
آهٍ، لوددت أن أحج إليها
لتتأمل عيناها
عصاي وعباءتي".

كليمانس:

(تواصل التظاهر باللامبالاة، ولكن ارتعاش صوتها يخونها):

وهل تستحضر أيضاً أبياتاً أخرى؟

الحاج:

"يصدق من يراني جشعاً
طامعاً بمحبوبتي البعيدة
فلا فرحة تروق لي
مثل فرحتي بحبي البعيد
إنما ما أشتهيه محرَّم عليَّ
هكذا شاء عرابي
أن أهوى ولا يهواني الهوى...".
ويقول أموراً أخرى لا أتذكرها

كليمانس:

(تحاول أن تظهر أقل تأثراً مما هي عليه):

إذا التقيتَ ذلك الرجل يوماً، فقُلْ له... قُلْ له

الحاج:

ماذا أقول له؟

كليمانس:

لا، لا شيء، لا تقلْ له شيئاً.

(تلتفت، ويفضل الحاج الإنصراف بصمت.
وبعد ان تصبح بمفردها، تدندن بضعة ابيات
من تلك التي ألقاها الحاج على مسمعها،
ولكنها تغنيها باللغة الأوكسيتانية[1]):

"لن انعم بحبٍّ
ما لم انعم بذلك الحب البعيد
أنبل وأفضل منها لا أعرف
في البلدان القصية أو الدانية".

(يتأملها الحاج المتواري خلف شجرة،
ويصغي إليها خلسةً. ثم يبتعد فيما تستعيد
كليمانس رباطة جأشها).

(1) تتألف اللغة الأوكسيتانية من مجموعة اللهجات المحكية في جنوب فرنسا (المترجمة).

كليمانس:

لو كان يعرفني ذلك الشاعر الجوّال، هل كان ليتغنى بي بذلك الوجد؟
هل كان ليتغنى بي لو تسنى له سبر أعماق روحي؟
جميلة بدون صلف الجمال، قيل له
جميلة؟ بل أتلفت حولي دائماً لأتيقن أن لا امرأة تفوقني جمالاً!
نبيلة بدون صلف النبل؟
بل أطمع بأراضي الغرب والشرق معاً
وكأن العناية الإلهية مدينةٌ لي!
تقية بدون صلف التقى؟
بل أتبختر بأبهى حلة
في طريقي إلى القداس،
ثم أركع في الكنيسة، خالية الذهن!
أيها الشاعر الجوّال، لست جميلة
سوى في مرآة كلماتك.

الفصل الثالث

المشهد الأول

في قصر بلاد بلاي

جوفري:

أيها الحاج، أيها الحاج، بالله عليك، قل لي هل رأيتها؟

الحاج:

أجل، رأيتها يا أميري الطيب!

جوفري:

أوّاه، أنت أوفر مني حظاً، أحسد عينيك، فلا بد أنك تراها ثانية فيما أحدثك عنها، أصدقني القول.

الحاج:

أجل، عندما تحدثني عنها، أراها في خيالي.

جوفري:

قل لي، كيف هي؟

الحاج:

إنها كما وصفتها لك عشرين لا بل خمسين مرةً.
جوفري، ربما... ربما يجب أن تفكر بها أقل.

جوفري:

(منفجراً):

أقلّ؟

الحاج:

نعم، أقلّ! يجب أن تفكر أقلّ بتلك السيدة البعيدة، وتعير مقاطعتك والناس الطيبين الذين يحيطون بك مزيداً من الاهتمام. فما عدت تخرج من القصر، أو تخاطب أحداً سوى عودك. والجميع يظن أنك قد جننت.

جوفري:

وأنت أيضاً، يا صديقي، تظن ذلك؟

الحاج:

حين يقال للمرء: "أنت مجنون"، فهذا يعني أننا لا نقصد ما نقول. وحين نعتقد أنه كذلك، نكتفي بالإشفاق عليه في الخفاء.

جوفري:

(وقد رقّ صوته فجاةً كما استشاط غضباً):

ومع ذلك، فأنا مجنون بها حقاً. أيها الحاج، إنني مجنون، وحق الله!

مذ حدثتني عنها، ولا أحد سواها يسكن خيالي.
في الليل، يتراءى لي ذلك الوجه الرقيق في المنام
وعينيه اللتين بلون البحر، يبتسم لي، فأقول في نفسي تلك هي وما لمحتها أبداً من ذي قبل.
ثم يبزغ الفجر فأتحرّق في فراشي لأني لم أفلح
في مداعبتها أو استبقائها.
أوليس هذا هو الجنون، أيها الحاج؟
وهي هناك، بعيداً، لا تخامرها الشكوك!

الحاج:

(وقد تأمله حتى تلك الحين بمزيج من الانبهار والشفقة، يقرر الكلام بعد تردد طويل):

جوفري، إنها تعلم.

(صمت ثقيل ثقل القدر الذي ينهال بوطأته على البشر، ثم...)

جوفري:

ماذا تقول أيها الحاج؟

الحاج:

قلت: إنها تعلم.

جوفري:

ماذا تعلم؟

الحاج:

تعلم كلَّ ما يجب أن تعلم. أنك شاعر وتتغنى بحسنها.

جوفري:

وكيف علمت؟

الحاج:

سألَتْ، فأجبتُها.

جوفري:

لماذا؟ لماذا فعلت بي ذلك؟

الحاج:

لا أريد أن أكذب عليها. فطالما يعلم الجميع اسم تلك التي تتغنى بها، فبأيِّ حقٍّ نكتم عليها الأمر؟

جوفري:

(تحت وقع الصدمة):

إنها تعلم!

الحاج:

إن كنت تهواها، فأنت مدين لها بالحقيقة. لقد فعلتُ ما كنت ستفعله أنت لو كنت مكاني...

جوفري:

إنها تعلم!

الحاج:

كانت ستعلم عاجلاً أم آجلاً، وربّما على أحد ألسنة السوء!

جوفري:

(يخرج شيئاً فشيئاً من ذهوله):

وماذا تعلم؟ هل بحت لها باسمي؟

الحاج:

أجل، باتت تعرف اسمك وأنك أمير وشاعر جوّال.

جوفري:

هل قلت لها إني متيّم بها؟

الحاج:

وكيف أقوى على كتمان الأمر عنها؟

جوفري:

أيها الشقي! وكيف استجابت للأمر؟

الحاج:

للوهلة الأولى، استاءت.

جوفري:

استاءت؟

(يستاء هو شخصياً)

الحاج:

كان ذلك، للوهلة الأولى، حياء سيدة نبيلة يتغنى بها رجل بغير علمٍ منها. ولكنها، بعيد ذلك، أذعنت.

جوفري:

أذعنت؟

(يبدو عليه الاستياء كذلك)

الحاج:

أعني أنها أدركت بأن سلوكك سلوك رجل شريف،

يهيم بها إنما يجلُّ قدرها. وأظن أن ذلك قد أرضى غرورها.

جوفري:

أرضى غرورها؟

هي الكائنة في الأعالي، فوق القمم،

أرضت غرورها؟

استاءت، أذعنت، وأرضت غرورها،

ما أكثر الإساءة إليها!

آهٍ أيها الحاج، ما كان يجب أن تخونني!

(يهم الحاج بالاعتراض، ولكن صديقه لا يدع له الفرصة).

جوفري:

هل ألقيت عليها قصائدي؟

الحاج:

لم تسعفني الذاكرة، فدندنت لها بعضها تقريباً

جوفري:

(يكاد يصرخ غاضباً):

تقريباً! وماذا تعني بقولك " تقريباً "! أمضي نهاري وليلي في تلحين الأغاني، كل نغمة، وكل قافية يجب أن تجتاز معمودية النار، أخلع ثيابي وأرتديها عشرين مرة، ثلاثين مرة، قبل أن أعثر على الكلمة الملائمة التي تنتظر مكانها منذ الأزل، وهي معلقةً في السماء. وأنت، ألقيتها " تقريباً "؟ "دندنتها تقريباً "؟ أيها الشقي! أيها البائس! كيف تخونني ثم تزعم أنك صديقي؟

الحاج:

(ممتعضاً):

ربما يجدر بي الانصراف.

جوفري:

(نادماً):

لا، إنتظر، سامحني!

فكل ما يجري قد قلب كياني رأساً على عقب.

سامحني، يا صديقي، لن أدعك تنصرف غاضباً.

إن كان ثمة رجل في هذه الدنيا يملك عليَّ حقوقاً

فهو أنت وحدك أيها الحاج، يا صديقي وأول من حدثني عنها.

غير أن ما تقوله يزعزع كياني، لأني، كلما فكرت فيها،

سيخطر لي بأنها ترنو إلي من بعيد.

كان يسهل عليَّ تلحين قصائدي لأنها لا تسمعها.

أما الآن، اما الآن...

(يفكر ملياً)

أما الآن فيجب أن تسمعها بصوتي.

أجل، بصوتي، لا بصوت غيري.

فلئن تورَّد وجهها، وهي تصغي إلى اغنيتي،

أود أن اراها تتورَّد.

ولئن ارتعشت، أود أن أراها ترتعش.

ولئن تنهدت، أريد أن أسمعها تتنهد.

لم تعد بعيدة، وبوسعك... بوسعك أن تهمس لي اسمها.

الحاج:

كليمانس، إسمها كليمانس.

جوفري:

كليمانس[2]، كليمانس، ما أرحم السماء!

كليمانس، البحر الرحيم سوف ينغلق أمامي

لأعبره بلا بلل نحو البلاد التي تتنفسين فيها.

(2) كليمانس Clémence أي الرحمة والرأفة بالفرنسية (المترجمة).

المشهد الثاني

في طرابلس، على الشاطىء.
كليمانس تتنزه. تدير ظهرها للقلعة، ووجهها نحو البحر. تتبعها بعض النساء الطرابلسيات على مسافة. تستعيد وتتابع دندنة اغنية جوفري التي ذكرت مطلعها في نهاية الفصل الثاني.

كليمانس:

"أصدق ربي
الذي سأرى بفضله محبوبتي البعيدة
إنما لكل نصيب من الخير ألقاه
نصيبان من الشر لأنها نائية
آه، لوددت أن أحج إليها
لتتأمل عيناها
عصاي وعباءتي "

يصدق من يراني جشعاً
طامعاً بمحبوبتي البعيدة
فلا فرحة تروق لي
مثل فرحتي بذلك الحب البعيد
إنما ما اشتهيه محرَّم عليَّ
هكذا شاء عرَّابي
أن أهوى ولا يهواني الهوى... "

جوقة الطرابلسيات:

ها هي تقع في شباك ذلك الشاعر الجوَّال
تغني أغانيه، وتشعر بالإطراء
إنما ماذا سيثمر ذلك الحب البعيد؟
لا صحبة حلوة، ولا عناق رقيق،
لا عرس، لا أراض، لا أطفال،
ماذا سيثمر ذلك الحب البعيد؟
سوف يبعدها عن خاطبي ودِّها
أمير انطاكية، وكونت الرُّها... (يتهامسن)
ويقال، يقال كذلك إبن قيصر بيزنطية.

صوت من الجوقة:

انتن اللاتي تلمتها

ماذا جلب لكن أزواجكن؟
أمراءً كانوا أم خدماً
لقد جعلوا منكن خادمات
بوصالهم تتألمن
وبِبعادهم، تتألمن.

كليمانس:

أصبت، يا ابنتي، يا صديقتي،
بوركت! بوركت! فقد قلت الحقَّ.

جوقة الطرابلسيات:

أفلا تتألمين أيتها الكونتيسة؟
ألا تتألمين لبعدك عن الحبيب؟
لا تلمحين في نظرته إن كان ما زال راغباً بك؟
أفلا تتألمين لأنك حتى لا تعلمين
ماذا تشبه نظرته؟
أفلا تتألمين لأنك لا تغمضين عينيك
فتشعرين بذراعيه يطوقانك ويجذبانك إلى صدره؟
أفلا تتألمين لأنك لن تشعري بأنفاسه على بشرتك؟

كليمانس:

(كالمصعوقة):

لا، أقسم بالله، لا أتألم
قد أتألم يوماً، إنما لا أتألم بعد
بفضل مشيئته تعالى
فأغانيه أكثر من مداعبات،
لا أدري إن كنت سأعشق
الرجل كما عشقت الشاعر
لا أدري إن كنت سأفتتن بصوته
كما افتتنت بألحانه
لا، أقسم بالله، لا أتألم
لا ريب أني سأتألم لو انتظرت
ذلك الرجل ولم يأتِ
لكني لست في انتظاره
فأن يفكر رجلٌ بي
هناك، في موطني،
يشعرني فجأة بقربي من مرتع طفولتي
أنا ما وراء بحار الشاعر والشاعر ما وراء بحاري
وبين ضفتينا يرتحل عذب الكلام

وبين حياتينا ترتحل الأنغام

لا، أقسم بالله، لا أتألم

لا، أقسم بالله، لا أنتظره

لا أنتظره.

(ستارة)

الفصل الرابع

على المركب الذي يحمل جوفري إلى الشرق. إنها ساعة الغسق، ولكن الظلمة لم تلف المكان بعد. لون البحر يميل إلى الأزرق الداكن، وهو ساكن الموج.

جوفري:

(مفعماً بالحياة):

أوتصدق أيها الحاج، إنها المرة الأولى التي أركب
فيها البحر
لطالما عشت قربه
ارى البحارة، والحجاج، والتجار
يبحرون ويرجعون أو لا يرجعون، غنيت معهم،
استمعت إلى حكاياتهم،
ولكنها المرة الأولى التي أركب فيها البحر.

الحاج:

(مستلقياً):

إنها رحلتي العاشرة، أو الثانية عشرة
والأولى في كل مرة
في البدء، كان يصيبني الدوار،
وينحني جسدي، وتملأ المرارة فمي،
وفي تلك اللحظات، أقسم ألا أركب
البحر ما حييت.
ثم أُبعث شيئاً فشيئاً
وتجتاحني سعة السماء ورائحة الموج
ويرتحل ذهني إلى الضفة الأخرى.

جوفري:

(وقد تعاظمت نشوته):

لم أرغب من قبل في الإبحار
ولكن رحلتي سوف تنتهي في طرابلس
وفي نهايتها، هنالك كليمانس
وولادتي الثانية
ستكون مياه المعمودية عميقة وباردة
وفي نهاية الرحلة ستبدأ حياتي.

الحاج:

(مرهقاً):

إلى ذلك الحين، يجدر بك أن ترتاح قليلاً.

جوفري:

(يستمر في الحراك وينحني فوق الماء):

أيها الحاج، لماذا لون البحر أزرق؟

الحاج:

لأنه مرآة السماء.

جوفري:

والسماء، لِمَ هي زرقاء؟

الحاج:

لأنها مرآة البحر!
ولكن يجدر بك أن تستلقي مثلي يا جوفري،
فالرحلة طويلة.

(يقبل جوفري الإستلقاء على مضض. يصبح الليل حالكاً، والبحر هائجاً. يرى جوفري حلما أثناء الليل فيستيقظ مذعوراً)

جوفري:

رأيتها أيها الحاج، رأيتها كما أراك!

الحاج:

(مرهقاً يغالبه النعاس):

جوفري، أنت لا تراني، ولا أنا أراك
الليل حالك وقد رأيت حلماً!

جوفري:

كانت هنا، جسدها ووجهها وثوبها الأبيض
تضيء الليل.
تغني قصيدة نظمتها لأجلها.

(تتحقق الرؤيا على المسرح فيما جوفري يرويها للحاج. وتظهر كليمانس بثوب أبيض تتقدم نحو البحر وتومئ إلى جوفري أن يتبعها، ونسمعها تنشد):

"حبك يسكن بالي
في اليقظة وفي المنام
فلكم أفضّل المنام
لأنك فيه ملك لي!".

(ينشد جوفري بدوره ذلك المقطع، مستحضراً الحلم الذي رآه)

"حبك يسكن بالي
في اليقظة وفي المنام
فلكم أفضّل المنام
لأنك فيه ملك لي!".

جوفري:

لما نظرتُ إلى عينيها
ابتسمت لي، وأومأت أن أتبعها
ثم رحلت، تخطو كالملكة،
تجرُّ ثوبها وراءها كما رأيتُها للمرة الأولى
في طرابلس، خلال أحد الفصح.
اقتفيت أثرها، وعلى حين غرَّة
لمحتها تبتعد عن المركب وتمشي
على صفحة الماء كالسيد المسيح

ولا تغرق.
التفتتْ، وأشرعتْ ذراعيها
فلم أجرؤ على التقدم نحوها
بقيتُ ملتصقاً بالجسر لا أقوى على اللحاق بها
وأنتحبُ خجلاً بسبب جبني
ولما صحوتُ، كانت عيناي
مغرورقتين بالدموع، وهي قد اختفت.

الحاج:

إهدأ يا جوفري، إنه مجرد حلم كاذب
لست جباناً ولقد ركبت البحر
للقاء محبوبتك البعيدة

جوفري:

انا خائف، أيها الحاج، أنا خائف
أنت صوت العقل ولكن الخوف لا يصغي
إلى صوت العقل
أخشى ألا ألقاها وأخشى لقاءها
أخشى أن يبتلعني البحر قبل بلوغ طرابلس
وأخشى بلوغ طرابلس
أخشى الموت، أيها الحاج، وأخشى الحياة، أوتفهمني؟

(يبزغ الفجر، ولكن البحر يزداد هياجاً.
جوفري يتشبث لئلا يقع، ممتقع اللون).

جوفري:

(يخاطب نفسه):

كان مقدَّراً لي أن أكون أسعد مخلوق في الأرض قاطبةً،
ولكني الأتعس.

(يتارجح المركب، فيترنح جوفري ثم ينتصب
بصعوبة شديدة فتسخر جوقة الخلان).

جوقة الخلان:

لقد عرفنا محاربين أشداء
يدخلون المعمعة ويعرِّضون أجسادهم
لنصال الأعداء
ولكنهم يرتعدون في عرض البحر
عرفنا مليكاً عظيماً
يخيف بنظرة واحدة الأمراء والفرسان
ويقود جيوشه

عبر الجبال والوديان

ولكنه يرتعد في عرض البحر.

جوفري:

(يصغي إليهم بنزق، ثم يلتفت إلى الحاج):

لو علم رفاقنا لماذا أنا أرتعش

لما أنشدوا ما أنشدوه،

فليس البحر ما يرهبني.

(يهزّ الحاج راسه بصمت).

جوفري:

أوتظن أنهم قالوا لها أيها الحاج؟

أوتظن أنهم أعلموها بقدومي إلى طرابلس؟

أوتظن أنهم أخطروها بانخراطي في الحملة الصليبية؟

الحاج:

مثل تلك الأمور لا تخفى، أجل

لا أدري من قال لها، ولكنها تعلم، أجل.

أجوب البحار والممالك

وكلما حملت نبأ إلى مدينة

يكون أحدهم قد سبقني

ويزعم بعضهم أن أسرار البشر

تهمسها الملائكة في مهب الريح.

(جوفري يصغي إليه بالكاد، ويواصل مناجاته، غارقاً في الكآبة).

جوفري:

كان مقدَّراً لي أن أكون أسعد مخلوق في الأرض قاطبةً،

ولكني الأتعس.

كان يجب أن أشعر بلهفة لبلوغ مدينتها طرابلس

وها إنني أتضرع للسماء لئلّا تنفخ الريح في قلوعنا

حبذا لو يطلع مارد من أعماق اليم، ويقول:

"أطلب وتمنى يا جوفري، ولك ما تشاء!"،

فلن أدري ما أتمنى.

هل أتمنى أن أرى المرأة الطاهرة أمامي

وأن تراني أمامها؟

هل أتمنى التغني بمحبوبتي البعيدة،

حين تتاملها عيناي عن كثب

وأرمق طرف جفنيها
وتغضن شفتيها
وكل تنهيدة من تنهيداتها؟
ما كان يجدر بي الإبحار
من بعيد، الشمس تلوح كنور السماء
ومن قريب، هي سعير الجحيم!
كان يجدر بي أن أهدهد نفسي
طويلاً بضيائها البعيد بدلاً من القدوم للاحتراق في
وهجها!
كنت آدم، وكان البعاد فردوسي الأرضي
فلماذا أمضي نحو شجرة الخطيئة؟
وأمد يدي إلى الثمرة؟
وأدنو من النجمة الحارقة؟

(يزداد هياج البحر، وتنذر السماء بحلول العاصفة. يترنح جوفري، فيسنده الحاج ويساعده على الإستلقاء).

الفصل الخامس

حديقة القلعة في طرابلس.

تنظر كليمانس إلى خط الأفق. وتعلن لها جوقة الطرابلسيات النبأ الذي ترجوه وتخشاه.

جوقة الطرابلسيات:

(بدلاً من الغناء العقلي. جلبة معتدلة التشوش وكلمات مُبَلبلة تعوم في جوف صخب المرفأ والبحر).

أنظري أيتها الكونتيسة!
في الميناء، على المرسى، إنه المركب!
لقد رسا! لقد رسا!
إنه هنا! إنه هنا! إنه هنا!
الحجاج، الرايات، المركب!
الشاعر الجوَّال!
هناك، يا كونتيسة!
الشاعر الجوَّال!
في الميناء، الصليبيون، المركب!

الميناء، المركب!

إنه هنا! إنه هنا! إنه هنا!

الشاعر الجوّال!

لقد وصل! لقد وصل!

كليمانس:

(تسكت كل هذه الجلبة):

إذاً، لقد جاء

ذلك المجنون!

أبى أن يظل ذلك الطيف البعيد

تلك الحكاية الغريبة التي يتناقلها الناس،

ذلك الصوت القوي الذي يقلده البشر،

لم يكتف بكونه شاعراً ومطرباً جوّالاً

بل جاء

المجنون.

(تتواصل الجلبة قليلاً. تعيرها كليمانس السمع، ثم تأمر الجميع بالسكوت).

إذاً، لقد جاء

ذلك المجنون!

مجنون الحب

ركب البحر

ليتأملني كما أنا

ولأتأمل هامته الرجولية

وأرمق شفتيه وهما تتحرّكان، وعنّي تتحدثان.

هل أظهر الاهتمام، والرضى، والامتنان؟

أم التحفظ، والتظاهر باللامبالاة؟

أم، على العكس، التودد؟

كيف كانت لتتصرف سيدة أغانيه؟

تلك التي يدعوها

حبه البعيد؟

إذاً، لقد جاء

ذلك المجنون!

(تتعالى جلبة الجوقة ثانيةً، سريعاً، فتغطي على الكلمات الأخيرة التي تلفظت بها الكونتيسة فيما يدخل الحاج لاهثاً، وبخطوات اقل مهابة من العادة).

الحاج:

أيتها السيدة النبيلة، أحمل لك نبأ

نبأً لن يسرَّك.

كليمانس:

(تظن أنه يهم بإعلان قدوم الشاعر الجوّال،
فتتصنع شيئاً من الدعابة والمرح):

أيها الحاج، دعني أحكم بنفسي على ما يسرُّني
وما لا يسرُّني.
فلعلَّ بشراك تحزنني
وأنباؤك المشؤومة تفرحني
ولعل كل أنبائك لن تهمني
فماذا أردت أن تعلن لي؟

الحاج:

الأمر يتعلق بجوفري، جوفري روديل!

كليمانس:

(بنبرة تريدها حازمة، ولكنها ترتعش):

الشاعر الجوّال؟
النبأ الذي تحمله أعرفه، فقد قيل لي إن مركبه قد رسا في طرابلس: كم يوماً سيمكث هنا؟

الحاج:

ليس هذا هو بيت القصيد، يا سيدتي النبيلة،
جئت أعلمك
بأنه يحتضر.

كليمانس:

يا إلهي! يا إلهي! ربّاه! ربّاه!

الحاج:

لقد اعتلّ في البحر، ولم يستعد وعيه. إنه يرحل عن هذه الدنيا، وأنت وحدك بوسعك الحؤول دون رحيله.

كليمانس:

أين هو؟

الحاج:

سوف يصل بعد حين.

كليمانس:

(وقد هدأ روعها قليلاً، وتحفظت):

طالما يقوى على الصعود إلى القلعة،
فهو ليس عليلاً كما تزعم.

الحاج:

أربعة رجال يحملونه على محفّة.

ها قد أقبلوا، لقد وصلوا.

(يصل جوفري، يحمله أربعة من رفاقه،
مغشياً، ولكنه يستعيد وعيه شيئاً فشيئاً تحت
نظرات كليمانس)

جوفري:

هذه أنت، هذه أنت، هذه أنت
كان بإمكاني معرفتك من بين كل النساء.

كليمانس:

(تنحني فوقه قليلاً):

كيف تشعر؟

جوفري؟

سعيداً... (يعتصره الألم)

سعيداً كرجلٍ تبالين بمصيره

كليمانس:

(تنتحي بالحاج):

ماذا يقول الطبيب العربي؟

الحاج:

يقول إنه قد يعيش حتى الفجر.

كليمانس:

ربّاه!

جوفري:

لا تتهامسا، فلست جاهلاً بحالي.
قد يكذب الأطباء لطمأنة المحتضر،
أما خفقات القلب فلا تكذب.

كليمانس:

(تحتضن يده بيدها وتريد التهوين عليه):

لعل الرب لم يشأ بعد أن يسلخك
عن أولئك الذين يحيطون بك.

جوفري:

أفلا نطمعنَّ برحمة السماء!

لقد تضرعت إلى ربي لينعم عليَّ برؤيتك
قبل موتي، وها أنت أمام ناظريَّ
وآخر صورة سوف أحتفظ بها
من هذه الدنيا صورة محياك
وصورة عينيك اللتين تعانقاني.
وآخر صوت سأسمعه هو صوتك
إنه يسعى لتهدئة روعي،
آخر إحساس لجسدي الفاني،
يدي العليلة ترقد بين يديك
فماذا أطلب بعد من السماء؟
لو قدِّر لي أن أعيش مائة عام،
فأنى لي أن أعرف غبطةً
أكثر اكتمالاً؟

جوقة الخلاَّن:

بئس الحب

حين يجعل المرء يزدري الحياة
بئس الحب
حين يخون الحياة ويتحالف مع الردى.

جوفري:

(ينتصب غاضباً، ثم يتهاوى على الفور منهكاً):

لا تلعنوا الحب، أيها الخلان
فالحب يمنحنا الأفراح
فلم لا يحق له أن يستردها؟
ليس الحب بالجحود
بل نحن أحياناً لا نستحق أن نُحَب
ليس الحب الذي يخون، بل نحن
الذين نخون الحب.

كليمانس:

كم تمنيت أن أكون شاعرة لأرد عليك
بكلام يضاهي بروعته روعة كلامك.

جوفري:

أنت الجمال، ولست
سوى المستنقع حيث يتملى جمالك.

كليمانس:

ثمة أمر كنت أود كتمانه،
إنما لو لم أبح به اليوم، فأخشى
ما أخشاه أن أعجز عن البوح به.
أغنياتك، كنت أنشدها في المساء
وحدي، في مخدعي،
وأبكي فرحاً.

جوفري:

لئن كانت أغنياتي جميلة فلأن عشقي طاهر
ومعشوقتي آية في الحسن والجمال،
ولكنك أكثر ضياءً وأرق مما كنتُ أتصوّر.
لو تسنى لي أن أتأملك، لنظمت
شعراً أجمل، وألحاناً تمسُّ
شغاف الروح.
ولتعاظم وجدي وهيامي.

كليمانس:

لو كنا التقينا، لعشقتك.

جوفري:

بقدر ما أعشقك؟

كليمانس:

بقدر ما تعشقني.

جوفري:

ولامكنك القول: أحبك يا جوفري؟

كليمانس:

لأمكنني القول: أجل، أحبك يا جوفري.

جوفري:

(يرجع رأسه ويتطلع إلى السماء)

إلهي، إغفر لي رغبتي بالعيش ثانيةً!

(يختلج، وتحتضنه كليمانس بين ذراعيها).

جوفري:

ربأه! لو يتسنى لي البقاء هكذا
بضع لحظات، بضع لحظات فحسب
لو يتسنى لي أن أحيا قليلاً، قليلاً بعد
فحبيبتي التي كانت بعيدة

أضحت قريبة، وجسدي بين ذراعيها،
أتنشق أرق عطر
لو ينتظر الموت في الخارج
بدلاً من تعذيبي، بفارغ الصبر.

الحاج:

لو كان الموت ليس وشيكاً، يا جوفري،
لما كانت حبيبتك في هذه اللحظة قربك،
تعانقك،
ولما كان الهواء الذي تتنشقه مفعماً بعطرها،
ولما اعترفت لك: "أحبك يا جوفري!".

كليمانس:

أحبك، يا جوفري، وأتمنى
أن يكتب لك العيش!

جوفري:

لو قدِّر لي الشفاء
هل تمسكين بيدي
وتقودينني إلى مخدعك؟

كليمانس:

أجل، يا جوفري، لو شاء الرب الرحيم
أن يشفيك، فسوف أمسك بيدك
وأقودك إلى مخدعي.

جوفري:

وأضطجع قربك؟

كليمانس:

وتضطجع قربي.

جوفري:

وتلقين رأسك على كتفي؟

كليمانس:

ورأسي على كتفك.

جوفري:

ووجهك يدنو إليَّ، وشفتاك قرب شفتي.

كليمانس:

وشفتاي قرب شفتيك.

(تتلامس شفاهما).

جوفري:

في هذه اللحظة، أملك كل ما أشتهي

فماذا أطلب بعد من الحياة؟

(يتهالك جسده ويضعف. لا يحرك ساكناً. تظل كليمانس لوهلةٍ تعانقه، وقد وضعت رأسها على كتفه. ثم تنهض للصلاة).

كليمانس:

(ترافقها أحياناً الجوقة المحتشدة):

أرجوك، يا إلهي، أرجوك

قد تكون الآلهة القديمة ظالمة،

ولكن أنت لا تظلم يا إلهي

فأنت رؤوف رحيم، أنت حليم.

أرجوك، يا إلهي، أرجوك (جوقة).

هذا الإنسان الفاني لا يحمل في قلبه

سوى أطهر حب

يهب حياته لغريبة نائية ويكتفي

لقاء ذلك بابتسامة

يحمد الله على منحه القليل

ولا يرجو شيئاً

فإن لم تكن معه كريماً،

يا إلهي، فمع من ستكون الكريم؟

(في هذه الأثناء، ينحني الحاج فوق جوفري ويكتشف بأنه لا يتنفس. يومىء برأسه لكليمانس التي تسائله بنظرتها أن كل شيء قد انتهى. فتنحني فوق حبيبها وتداعبه كطفل يغفو. وشيئاً فشيئاً، ينتابها الغضب والتمرد بدلاً من الحزن، فتنهض وتوجه للسماء قبضةً متوعدة).

كليمانس:

"لقد آمنت بك، ورجوت، يا إلهي
أن تكون أكثر رأفة بذلك الإنسان الكريم
آمنت بك ورجوت يا إلهي
أنك ستظهر من الحب
ما يفوق حب ذلك العاشق المتيَّم
وتمنحنا لحظة،
مجرد لحظة من السعادة الحقيقية

تخلو من العذاب والسقم
والموت الوشيك
لحظة خاطفة من السعادة البسيطة
أفكان كثيراً عليك أن تفعل؟".

الجوقة محتشدة:

أصمتي يا امرأة، شغفك يضلّلك
أصمتي يا امرأة، أصمتي!

كليمانس:

لم شئت معاقبته؟
ألأنه دعاني آلهة؟

ألأنه زعم أنه صليبي، وبأنه رحل
لمحاربة الكفرة، فيما كان
قادماً لملاقاتي؟
أم لعلك تحسد
سعادة البشر الزائلة؟

الجوقة محتشدة:

أصمتي، يا امرأة، شغفك يضلّلك
أصمتي، يا امرأة، أصمتي!

جوقة الطرابلسيات:

أوتريدين أن تجرّي على مدينتنا
الويل والشؤم؟
أوتريدين أن يهيج البحر، ويتسلق
الموج الأسوار لابتلاع منازلنا
وإغراق أطفالنا؟

جوقة الخلاَّن:

أوتريدين أن تجرّي علينا أجمعين
قصاص الرب؟
فيتخلى عنا في عرض البحر

وسط العاصفة

ويتخلى عنا في معمعة الحرب

حين ينقض الأعداء؟

الجوقة محتشدة:

أصمتي، يا امرأة، شغفك يضلِّلك

أصمتي، يا امرأة، أصمتي!

كليمانس:

(تهيم على خشبة المسرح بثوبها الأبيض الفضفاض كمركب شراعي ترنحه الريح).

ظنَّ جوفري أنه لاقاني، فلاقى الموت

أيكون جمالي طعماً للموت؟

ظنَّ أنني الضياء

فكنت حارسة الظلمات!

أنى لي أن أهوى؟

أنى لي أن أكشف جسدي؟

وأفتح صدري لنظرة عشيق؟

الحاج:

(مفجوعاً بمصير صديقه، إنما أكثر تماسكاً

من كليمانس، يعرب بدوره عن أسفه. لا يتحاور الإثنان، بل يخوض كل منهما في مناجاة، ويشخصان إلى السماء):

وأنا، يا رب، لماذا اخترتني

لهذه المهمة؟

من ضفة إلى ضفة، ومن بوح إلى بوح،

خلت أني أنسج الخيوط البيضاء

لثوب عروس،

وبغير علمٍ مني، نسجت كفناً!

(يبتعد كملاك مخلوع، أو يتسمُّر كتمثال من الملح).

كليمانس:

لا أستحق أن أُحبَّ بعد اليوم

لا أستحق أن يتغنى بي الشعراء

أو يضمني صدر رجل أو يلاطفني

غداً، بعد المأتم، سأتّشح بالسواد

وألبس ثوباً من الصوف السميك

وأتوارى عن الأنظار

تحت سقف أحد الأديرة